

مصر تستمد قوتها من شعبها أم من قيادتها ومؤسساتها

محمد أبو الفضل
كاتب مصري



لم ينتبه كثيرون لمغزى حديث الرئيس المصري عبدالفتاح السيسي عن أهمية التلاحم الوطني ووحدة الشعب في مواجهة التحديات الخارجية، وبدت عبارة "هذا الشعب لم يجد من يحنو عليه"، التي قالها في بداية توليه السلطة منذ نحو ست سنوات ونصف السنة، نوعاً من الدعاية وصلت إلى حد تهكم البعض عليها وتحويلها إلى دعاية سياسية. أعاد السيسي هذا الخطاب بمعنى مغاير في مداخلة هاتفية مع مقدم برنامج الحكاية عمرو أديب على قناة "إم.بي.سي مصر"، مساء السبت، لافتاً إلى أن قوة مصر تتحصل عليها من قوة شعبها قبل قيادتها السياسية الخارج بيدا من استهداف الشعب". لأن "استهداف ويثابته معنى يتعلّق بان هذه الحلقة هي رمانة الميزان الحقيقية التي تستحق العناية، ويمكن أن تضعف الدولة وتهدها، أو تبعدها عن المخاطر، وعلى المواطنين عدم الوقوع في شرك سياسية أو إعلامية تستهدفهم.

يتزامن هذا الحديث مع قلق سياسي من أن تعيد إدارة الرئيس الأميركي جو بايدن اهتمامها بالداخل المصري، والضغط على النظام الحاكم في بعض الملفات الشائكة، الممثلة في الحريات والديمقراطية وحقوق الإنسان. وينطوي أيضاً على رسالة تحذير من حملة جديدة ترمي للعزف على وتر بعض الأوجاع الداخلية، وتحاول أن تستخدمها جماعة الإخوان لاستعادة دورها في الشارع.

يفتح كلام السيسي، والمعروف بأنه قليل التواصل مع وسائل الإعلام المحلية، جملة من القضايا الخاصة باستقرار الأوضاع الداخلية في الدول، باعتبارها ركيزة تستند عليها السياسة الخارجية، وليس العكس، ما يفسر عدم التفاعل المصري الكبير مع كثير من التطورات في المنطقة، إلا في حدود تمس الأمن القومي مباشرة، كما هو حاصل في ليبيا، وسد النهضة الإثيوبي، والعلاقة مع السودان، والقضية الفلسطينية.

لاحت بعض الفرص لمصر لتلعب دوراً مهماً في أزمات إقليمية، وفضلت الانكماش على الاستفادة من السيادة، واستثمرها آخرون، كان القاهرة لديها أجدنة تمنعها من الاشتباك الخارجي في الوقت الراهن، الأمر الذي أثار انقساماً بين نخب سياسية، بعضها رأى ضرورة في التمدد، وبعضها طالب بأهمية ترتيب البيت من الداخل أولاً، وعدم السماح بتآكل جدرانها الاقتصادية والاجتماعية.

فرست خبرة
ونجاح ثورة 25
يناير 2011
ضد نظام

الرئيس الأسبق حسني مبارك في مصر، على نظام السيسي مراعاة الحالة المزاجية للشعب، حيث رفع المواطنين في هذه الثورة شعار "عيش - حرية - كرامة إنسانية"، وجرى التراجع عن قرارات اتخذتها الحكومة عندما مست أوجاع الناس ووجدت معارضة من قبلهم. توصلت أجهزة الدولة والمواطنون إلى تفاهات ضمنية حول المسوح والمرفوض، فالهمم ألا يتماهى أحدهما في المساس بثوابت الآخر، فالأولى تسعى لتوفير الحد الأدنى من المعيشة، والآخر الثاني، المواطنون، لا يخشون في مظاهرات أو احتجاجات تؤدي بهم إلى مصير قاتم كما حدث في دول مجاورة، أو تهدد نظام الحكم، الذي اتخذ حزمة من الإجراءات الخشنة لمنع تكرار ما حدث في ثورة يناير.

سعت أجهزة صهيونية مختلفة لرفع شأن البند الثالث، في ما يمكن وصفه بـ"مانيفستو" ثورة يناير، وهو الكرامة الإنسانية، وحاولت التأكيد بأنه يحتل أولوية في تصورات الدولة، الأمر الذي كانت تظهر تجلياته من حين إلى آخر في التجاوب مع كثير من الحالات التي تمس كرامة مواطنين في مصر وخارجها.

مثل التفاعل السريع مع بعض الحالات رسالة توجي بأن النظام الحاكم يراعي بند الكرامة، ولن يقبل المساس بأحد، أملاً في تغيير انطباعات سلبية سائدة تشير إلى أن المرحلة التي تمر بها البلاد لا تختلف كثيراً عن مرحلة الرئيس مبارك التي أهدر فيها العيش والحرية والكرامة الإنسانية، وكان من الطبيعي أن يتمخض الغضب المتراكم عن ثورة تطيح بنظامه.

ينزع السيسي لغمّي العيش والكرامة تدريجياً، ما يجعله يسابق الزمن في المشروعات التنموية، ويبدى اهتماماً بتخفيف الأعباء عن كامل البسطاء عبر برامج اجتماعية محمائية ليشعر الناس بأن هناك حاضراً ومستقبلاً واعدين، بالتالي التخلي عن سخونة مكتومة داخل كتلة بشرية تعد مدخلاً لأي تغيير ثوري أو عشوائي في نظام الحكم، حيث اعترف السيسي بأن "حالة الثورة التي بدأت في 2011 لا تزال موجودة".

عنصر الحرية لن يتم إسقاطه حتى لو وصلت مصر إلى الرفاهية المنشودة ويتوقف حجم التفاعل على اختيار التوقيت المناسب، فالبرامج الاجتماعية والاقتصادية لن تغني عن الحاجة إلى إصلاحات سياسية جادة

تأتي قضية الحرية في مرتبة متأخرة ضمن أولويات النظام المصري، ويراهما بعض المسؤولين من الرفاهيات وليست من الضروريات، وإذا تمكنت الدولة من توفير العيش والكرامة، أو على الأقل الحد من تقلباتهما المجتمعية، فتراجع تلقائياً المطالبة بالحرية والإصلاحات السياسية، ويستطيع النظام ممارسة دوره بصلاية وبدون إزعاج. تبدو هذه النتيجة منطقية لو أن الدولة، أي دولة، تعيش في جزيرة منعزلة، بمجرد توفير عناصر العيش والكرامة لن تكون هناك حاجة للحرية ولوائدها ومظاهرها، أو اعتادت على ذلك، لكن على العكس مصر عاشت مراحل سابقة من الحريات وعرفت أهميتها، والآن هي منفتحة على جميع أنواع التكنولوجيا، ما يسهل الاحتكاك بين الشباب الذين يمثلون نحو نصف عدد السكان، ولدى شريحة كبيرة منهم نهم لممارسة الحرية بطوقها، المرغوبة والمنوعة، السياسية والاجتماعية، المؤيدة والمعارضة.

تؤكد هذه المحددات أن عنصر الحرية لن يتم إسقاطه بأي مغريات من حسابات هذه الشريحة، حتى لو وصلت مصر أو غيرها إلى الرفاهية المنشودة، ويتوقف حجم التفاعل على اختيار التوقيت المناسب، فالبرامج الاجتماعية والمشروعات الاقتصادية لن تغني في النهاية عن الحاجة إلى إصلاحات سياسية جادة. تعطل هذه المسألة تحدياً كبيراً للنظام المصري، حيث نجح السيسي في تثبيت صورة الزعيم الذي يبني ويعمر في طول البلاد وعرضها، وأضفى على الجيش المصري هالة عسكرية كبيرة في المنطقة، ونسج شبكة جيدة من العلاقات الخارجية، لكن مصر تحتاج لأن تقدم مشروعا متوازنا يقود إلى إطلاق الحريات العامة.

قبلت القاهرة أم رفضت الضغوط التي يمكن أن تمارس عليها من واشنطن، ستجد نفسها أمام اختبار في هذا الملف، فموسكو تواجه صعوبات جراء سجن المعارضين السياسيين، وثمة دعوات غربية بعدم التعامل بقسوة مع المتظاهرين في أنحاء روسيا والتهديد بعقوبات، ولن يجدي رفض هذا الأسلوب في وقف الإبتزاز السياسي، وربما تكون موسكو مضطرة للدخول في مساومات بسبب ما يشهده ملف الحريات.

على القيادة المصرية استثمار قوة الشعب ووقفه خلفها وتحمله بجسارة متابع الإصلاحات الاقتصادية للعمل بالتوازي على تنفيذ إصلاحات مثل "عيش - حرية - كرامة إنسانية"، لأن صياغته اختصرت الكثير من المسافات، وإسقاط أو تأجيل ضلع يقلل من أهمية الضلعين الباقيين ويفقدهما المفعول المرجو.



في تحالف سوريا وإيران

بهاء العوام
صحافي سوري



مرت عقود على تحالف طهران دمشق حتى الآن. تحالف أورثه الرئيس السوري السابق حافظ الأسد لابنه بين تركة كبيرة من العلاقات الخارجية المعقدة، وقد استغله الابن كثيراً ليس من أجل تحرير الجولان المحتل، وإنما لقمع المعارضة الداخلية، وإخماد الأصوات المطالبة برحيله خلال السنوات العشر الماضية.

كان موقع سوريا في التحالف أكثر فعالية حتى بداية الألفية الثالثة، أو في عهد الأسد الأب بتعبير أدق، ولكن تغيرت كثيرة طرأت عليها وعلى الشرق الأوسط عامة خلال العقدين الماضيين، أفقدت سوريا القدرة على التحكم بحجم تأثير هذا التحالف عليها، وحولت دمشق إلى واحدة من ولايات الخمينيين العرقية.

ما حرص عليه الأسد الأب طوال عهده هو الانتفاع من علاقته مع طهران دون أن يثير غضب حلفائه الآخرين وخصوصاً طهران. بانتهازية سياسية واضحة استغل حافظ الأسد علاقته الخارجية لتثبيت سلطته في الداخل، والمقابل الوحيد الذي قدمه للجميع هو المعادلة الصفرية لمحصول القوى المؤثرة في بلاده.

الأسد الأب لبنى مصالح جميع القوى الإقليمية والدولية، كان حليفاً وخصماً لكل في الوقت ذاته. يعرف ما هو الأهم بالنسبة إلى كل دولة طامعة بسوريا، ويقدم لها شرط الأهم هذا الأهم على حساب دولة أخرى. ولأنه اتقن الرقص على الحبال ولم يضع نفسه في مواجهة مباشرة مع أحد، بقي سيد اللعبة للنهاية.

مارس حافظ الأسد كثيراً من الانتهازية في علاقته الخارجية، وتضررت من سياساته هذه عدة دول وتجمعات في المنطقة، ولكن الأكثر تضرراً كان الشعب السوري الذي حكمه ولازال، وبسلطة مستبدة ورث الابن عن الأب مفتاحها وأدواتها وأسرارها، ولكن الفارق بين العهدين هو تغير الظروف الدولية والإقليمية.

تحالف سوريا وإيران عاش حتى عام 2011 متخراً بعنوان "محور المقاومة"، وحين طرقت الأسد الابن أبواب طهران لمساعدته في قمع الاحتجاجات الشعبية ضد، ظهر التحالف بحلته الأصلية، ومارس المقاومة الوحيدة التي يبرع بها وهي ضد الشعوب التي تحاول التحرر منه والانتقال على الأنظمة التي تتبناه.

لا يحتاج الأمر إلى جهد كبير لاكتشاف حقيقة هذا المحور، ويكفي أن ننظر إلى واقع الحال في مناطق امتداده الجغرافي حتى نعرف إنجازاته العظيمة. العراق وسوريا ولبنان وقطاع غزة واليمن كلها مرابا تعكس "مقاومة" هذا المحور، أما الحاضنة الأم فحدث ولا حرج عن انتصارات الخمينيين على الإيرانيين. منذ عام 2011 صوب محور "المقاومة" أسلحته وميليشياته على المدن السورية التي ثارت على النظام بزعم أن الطريق إلى القدس يمر منها.

وفوق كل بقعة وطنها الخمينيون عاثوا فساداً وزرعوا ثقافة الولاء للولي الفقيه. هكذا باتت نصف البلاد وأكثر تدين بالولاء لإيران أكثر من سوريا الدولة والوطن.

لم تنته كوارث الإيرانيين في سوريا حتى الآن، والحضور الروسي هناك منذ 2015 زاد الأمر سوءاً. فالروس لم يمنعوا فقط سقوط بشار الأسد، وإنما منعوا سقوط محور "المقاومة" بأكمله. ونتيجة لجهود الدولتين باتت سوريا اليوم مقسمة بين خمسة محتلين لكل منهم مساحته الجغرافية وخططه الاستراتيجية فيها.

ولا شك أن إيران هي الأكثر قبحا بين المحتلين الخمسة لسوريا، أولاً لأنها السبب في نشوب الحرب هناك، ولأنها مصرق انقسام المجتمع السوري دينياً ووطنياً، وثالثاً لأنها تحرص أكثر من غيرها على أجل مفتوح للأزمة تغرق فيه البلاد أكثر فاكتر في تبعتها للولي الفقيه، ورابعاً لأنها تواصل كذبة "المقاومة".

إيران هي الأسوأ ليس فقط بالنسبة إلى السوريين، وإنما أيضاً للمحتلين الأربعة المتبقين. أسبابهم في هذا تختلف طبعاً، ولكن المحصلة أنها باتت اليوم عدواً مشتركاً لهم، وكل منهم يحاول طردها من هناك بطريقة أو بأخرى. مرة يتعاونون، ومرات يتصرفون وفق خطط منفصلة، ولذلك النتيجة حتى الآن هي الفشل.

يتحسس الخمينيون جيداً ذلك التصيق الذي يمارس عليهم للخروج من سوريا، ولكنهم يدركون تباين رؤى خصومهم حول الية طردهم واهدافها. ويستغلون نقطة الضعف الأكبر في الخطط التي تحاول محاصرتهم ودفعهم للعودة إلى إيران. لتزول برحليهم لعنة "المقاومة" التي أصابت السوريين وغيرهم بالمنطقة.

ما يهدد خطط خصوم الخمينيين هو اعتمادها على "الرئيس". فلا زالت القوى الدولية والإقليمية تؤيد بقاء الأسد على رأس السلطة في دمشق، وتفضل التعامل معه على استبداله بنظام آخر قد لا يكون معطاءً كما هي عائلة الأسد. خاصة وأنه لا يوجد اتفاق بين المعنيين الدوليين حول الأزمة السورية حتى الآن.

الحقيقة أن تفضيل الأسد على غيره هي مشكلة الأزمة السورية بشكل عام، وهو يستند على سببين رئيسيين، الأول أن "المعارضة" فشلت في تقديم نموذج بديل عن الأسد للمجتمع الدولي، والثاني أن القوى الكبرى، وخاصة الولايات المتحدة، لم تبد جدية في استبداله لأسباب متعددة لا يتعلق أي منها بمصلحة السوريين.

اليوم تحاول روسيا وإسرائيل وفقاً لتسريبات صحافية عديدة، طرد إيران من سوريا عبر اتفاق سلام بين دمشق وثل أبيب بعيد الشريعة للأسد، مقابل وقف تعاملاته مع إيران. لا يفترض الاتفاق أن الأسد يملك القدرة على طرد الخمينيين من بلاده، ولكنهم يريدون منه نزع "الشريعة" عن الوجود الإيراني في بلاده.

إن سحب النظام من الإيرانيين حجتهم في التواجد فوق الأراضي السورية، يصبح من الممكن توسيع نطاق

المواجهة الدولية والإقليمية معهم تحت عناوين عدة. تبدو الخطة منطقية إن حظيت بمباركة أميركية وأوروبية، ولكن أحداً لا يستطيع الرهان عليها إلى أن يتضح مستقبل الاتفاق النووي الإيراني وتداعياته المتوقعة.

إن نجحت خطة روسيا وإسرائيل، وهو أمر مستبعد كثيراً حتى الآن، قد يبتلى السوريون بالأسد سبع سنوات أخرى، لكنهم حتماً سيحتجرون من سلاسل "المقاومة" و"دولة المواجهة" التي استعبدتهم النظام بها لعقود طويلة دون أن يضرب حجراً واحداً على إسرائيل. فهل هذا المقابل لا زال يعني شيئاً بالنسبة إليهم؟

العرب

أول صحيفة عربية صدرت في لندن
1977 أسسها

أحمد الصالحين الهوني

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير المسؤول

د. هيثم الزبيدي

رئيس التحرير والمدير العام

محمد أحمد الهوني

مدراء التحرير

مختار الدبابي

كرم نعمة

منى المحروقي

مدير النشر

علي قاسم

المدير الفني

سعيدة العيقوبي

تصدر عن

Al-Arab Publishing House
المكتب الرئيسي (لندن)
The Quadrant
177 - 179 Hammersmith Road
London, W6 8BS, UK
Tel: (+44) 20 7602 3999
Fax: (+44) 20 7602 8778

للإعلان

Advertising Department
Tel: +44 20 8742 9262
ads@alarab.co.uk

www.alarab.co.uk
editor@alarab.co.uk